صناعة: الأدب العربي

٢ ـ ديوان حافظ إبراهيم

للدكتور زكي مبارك

مواساة طرابلس — مواساة بيروت — آمال مصرية

مواساة طرابلس

في شهر سبتمبر من سنة ١٩١١ أغارت إيطاليا على طرابلس — وهي يومئذ ولاية تركية — فنهض المصريون لمعاونة طرابلس بالطب والشعر والمال والرجال، فمضى إلى الميدان أطباء مصريون لمعالجة الجرحى الطرابلسيين، منهم الدكاترة حافظ عفيفي وسيد شكري ونصر فريد؛ ومضى إلى الميدان مجاهدون مصريون أشهرهم عزيز باشا المصري، ومحمد بك القنائي؛ وجمعت أموال كثيرة لتموين الجيش الطرابلسي. وبفضل تلك الحرب أنشئت جمعية الهلال الأحمر المصري، وكان لقلم الشيخ علي يوسف تأثير في إنشاء تلك الجمعية، وهي لا تزال من كبريات جمعياتنا الخيرية.

وانطلق الشعراء فقالوا في تشجيع الطرابلسيين وتخذيل الإيطاليين عشرات القصائد الجياد

في تلك الحرب قال حافظ قصيدته الميمية:

طمع ألقى عن الغرب اللثاما فاستفق يا شرق واحذر أن تنامًا

وفيها قال عبد المطلب قصيدته البائية:

بني أمنا، أين الحميس المدرَّبُ وأين العوالي والحسام المذرَّب

و «بنو أمنا» في قصيدة عبد المطلب هم الأتراك، وكانوا كذلك بحكم الأخوة الإسلامية، وهو معنى فسَّره شوقي أحسن تفسير حين قال في التوجع لسقوط «أدرنة» في الحرب البلقانية:

مقدونيا ـ والمسلمون عشيرة ـ كيف الخُتولة فيك والأعمام

وبمناسبة قصيدة عبد المطلب أذكر أنه قال في التمهيد إن

موهوبين أو وسطاء، وهو ما لا يعقل ... »

ثم جاء فيه: « كل مقال الأستاذ العقاد منصب على إثبات وجود التلباثي بأدلة منطقية قياسية، وقد فرغ العلماء من إثباته منذ ٨٥ سنة، وتدرس هذه العلوم كدراسات عليا في جامعات انجلترا الكبرى. ومحاولة الأستاذ إثباتها كمن يحاول إثبات وجود أشعة إكس بالاستنتاج الخ »

أما أن مقالي منصب على إثبات وجود التلباثي فغير صحيح، لأنني لم أتجاوز تخطئة الذين يجزمون بنفيه. وقلت: « يجوز أن يأتي غداً من يثبت — هذه الملكة — ثبوتاً قاطعاً لا شك فيه، ويجوز أن يأتي غداً من ينفيها نفياً قاطعاً لا شك فيه ».

وأما أن وجود التلباثي ثابت كوجود أشعة إكس فذلك قول يدعيه المدعي وعليه إثباته. وقد تقنع منه بتقرير ثلاثة من المشتغلين بالعلم عندنا يؤيدونه فيما قال. وأول ما يقتضيه هذا الرأي أنه يبطل القول بالملكة النفسية ويجعلها خاصة من الخواص التي تتكرر في كل جسم وفي كل معمل من معامل الطبيعة، وهذا كلام لا يقره النفسيون ولا الطبيعيون ولا المنطقيون

وأما ما قاله صاحب الاستدراك عن سماع الأصوات على البعد فما زاد فيه على ما رأيناه حيث قلنا في مقالنا السابق: « إن التقاء نفسين أيسر قبولاً من التقاء نفس واحدة من جانب وألوف النفوس من جانب آخر »

أو حيث قلنا: « إن انتقال الصوت المادي مئات الأميال يقتضي أن يكون صوت سارية قد سُمع في الجيش الذي معه وهو يستغيث وقد سمع في المسجد الذي كان عمر يخطب فيه، وقد سمع الصوتان: صوت الاستغاثة وصوت الاستجابة على طول الطريق، ولم يذكر لنا رواة القصة شيئاً من ذلك »

هذا ما نجيب به عن استدراك المستدرك ولا نجيب عن غيره من كلامه الذي لا نرى فيه ما يناقش أو يجاب.

عباس محمود العقاد

نفسه جاشت حزناً حين لاحظ أن القوة المدافعة من الطرابلسيين وأن الأتراك لم يكونوا إلا مدبرين

وقد فكرت في مراجعة الجرائد المصرية لذلك العهد عساني أعرف السبب في تخلف الجيش التركي عن معاونة الجيش الطرابلسي ، ثم اتفق أن لقيت الأستاذ عبد الرحمن بك عزام في قصر الزعفران يوم مضيت للتسليم على حضرة صاحب السمو الأمير عبد الإله ، فسألته عن سبب ذلك التخلف ، فأفهمني أن انجلترا اعترضت على مرور الجيش التركي بالأرض المصرية بحجة أن مصر على الحياد ، فلم تستطع تركيا إنجاد طرابلس بغير القواد من أمثال أنور وفتحي ومصطفى كمال

كانت تلك الحرب مثاراً لحركة فكرية وأدبية ، ففيها اختصم المصريون حول الموجب لمعاونة الأمم الإسلامية ، وكان ذلك الاختصام بمناسبة مقالة نشرها لطفي باشا السيد عن الأموال التي تجمع لمواساة الجرحى من المجاهدين المسلمين . فقد أعلن أن الأفضل أن تجمع تلك الأموال باسم الإنسانية لا باسم الدين ، فثار الجدل هنا وهناك ، لأن مثل هذا الرأي في ذلك الوقت كان يثير الجدال

وفي غمرة الكروب التي أثارتها تلك الحرب أعلن الشام أنه يريد الاستقلال ، بتوجيهات خفية من خصوم الأتراك ، فثارت الجرائد المصرية وعدت ذلك تأييداً لعدوان الطليان

نكبة بيروت

ولم تنتظر إيطاليا حتى تنجح الدسائس الخفية في تحريض البلاد الشامية على الدول التركية ، فأرسلت أسطولها لضرب ميناء بيروت بالمدافع الثقال ، انتقاماً من الأتراك ، والأحمق يؤذي نفسه من حيث لا يريد

كان من السهل في تلك الأيام أن يميل نصارى لبنان إلى تأييد الطليان — فقد كانت بينهم وبين الأتراك عداوات — ولكن ضرب بيروت بمدافع الأسطول الإيطالي أغضبت نصارى لبنان وملأت قلوبهم بالغيظ فثلبوها بما يملكون من أسلحة الهجاء في الجرائد والمجلات

وفي تلك النكبة ثار الشعراء المصريون على الطليان ، ثاروا انتصاراً للأتراك وانتصاراً لأهل لبنان

وفي نكبة بيروت نظم شوقي قصيدهُ الرائع :

يا ربِّ أمرُك في الممالك نافذٌ
والحكم حكمك في الدم المسفوك
إن شئت أهرقه وإن شئت احمه
هو لم يكن لسواك بالمملوك
واحكم بعدلك إن عدلك لم يكن بالمتهَم فيه ولا المشكوك
لأجل آجالٍ دنت وتهيأت قدّرت ضرب الشاطئ المتروك
بيروتُ مات الأُسد حتف أنوفهم
لم يشهروا سيفاً ولم يحموك
كلٌّ يصيد الليث وهو مقيدٌ وبعزّ صيدُ الضيغم الفكوك
يا مَضربَ الخِيَم المنيفة للقِرى
ما أنصف المُجمُ الألى ضربوك
ما كنتِ يوماً للقنابل موضعاً ولو أنها من عسجدٍ مسبوك
بيروتُ يا راحَ النزيل وأُنسهُ يمضي الزمان عليَّ لا أسلوك
الحسنُ لفظٌ في المدائن كلها ووجدته لفظاً ومعنًى فيك

وفي نكبة بيروت نظم حافظ « رواية تمثيلية » جديرة بالإعجاب ، وفيها أدار الحوار بين جريح من أهل بيروت وزوجة له اسمها « ليلى » وطبيب ورجل بدوي

وترجع أهمية هذه المنظومة إلى ما اشتملت عليه من الصدق في تصوير العاطفة الإنسانية ، العاطفة التي تجمع بين قسوة الزجولة ورقة الوجدان ؛ فالجريح فتى لبناني عجز عن مقاومة النار بالنار ، فما كان لبلده أسطول يقاوم به أسطول الطليان ، ولا أتيحت له فرصة يلتقي فيها سيفاً لسيف مع أحد جنود الأعداء ، وإنما رُمي وهو عاجزٌ عن أن يَرمي ، فهو وقيذ الاغتيال . وفي تلك المحنة يتذكر مهد غرامه وهو بيروت ، بيروت التي جمعت بينه وبين ليلاه في فجر الشباب

ولنترك حافظاً يصور آلام هذا الجريح بشعره الرقيق :

ليـــلاي ما أنا حيٌّ يُرجى ولا أنا مَيتُ

لم أقضِ حقّ بلادى وها أنا قد قضيت
شفيت نفسى لو أنى لما رُميت رَميت
بيروت لو أن خصماً مَشى إلىّ مشيت
أو داسَ أرضَك باغٍ لدُسته وبغيتُ
أو حلّ فيك عدوٌّ منازلٌ ما اتقيتُ
لكنْ رماك جبان لو بان لى لاشتفيتُ
ليلاى لا تحسبينى علىّ الحياة بكيتُ
ولا تظنى شكاتى من مصرعى إن شكوتُ
ولا يُخيفنْك ذِكرى بيروتَ أنى سلوتُ
بيروت عهد غرامى فيها وفيك صَبوْتُ
جررت ذيل شبابى لهواً وفيها جريتُ
فيها عرفتُك طفلاً ومن هواك انتشيتُ
ومن عيون رُباها وعذب فيك ارتويتُ
فيها لليلى كِناسٌ ولى من العز بيتُ
فيها بَنَى لىَ مجداً أوائلى وبنيتُ
ليلَى ، سراج حياتى خبّا فما فيه زيتُ
قد أطفأته كُرَاتٌ ما من لظاهنّ فوت
رَمَى بهنّ بُغاةٌ أصبنى فثويت

ثم يمضى الحوار بين الجريح وليلاه ، ثم يتدخل البدوى والطبيب ، فلا تنتهى المنظومة إلا بعد أن يستوفى حافظ تصوير ذلك المشهد الحزين

ونرجع إلى القصيد الميمية فنقول :

فى تلك القصيد صوّر حافظ عدة مشاهد ، صور انتفاع الطرابلسيين بالذخائر التى تركها الجيش الإيطالى عند انهزامه بإحدى المواقع فقال :

حازِمَ الطليان قد قلدتنا مِنةً نذكرها عاماً فعاما
أنت أهديت إلينا عُدّةً ولباساً وشرابا وطعاما
وسلاحاً كان فى أيديكمُ ذا كَلالٍ فغدا يَفرى العظاما
أكثروا النزهة فى أحيائنا ورُبانا إنها تشفى السقاما
وأقيموا كل عام موسما يُشبع الأيتام منا والأيامى

وصوّر استخفاف الإيطاليين بالمعاهدات وبالدين فقال :

أحرقوا الدور ، استحلوا كل ما
حرّمت « لاهاى » فى العهد احتراما
بارك الطران فى أعمالهم فسَلُوه : بارك القوم علاما
أبهذا جاءهم إنجيلهم
آمراً يلقى على الأرض السلاما
كشفوا عن نية الغرب لنا
وجَلوا عن أفق الشرق الظلاما
فقرأناها سطوراً من دمٍ أقسمت تلهم الشرق النهاما

وخلاصة القول أن حافظاً صوّر عواطف المصريين فى الثورة على الأمة الباغية التى عدت على إحدى البقاع الإسلامية ، بحيث استطاع أن يسبق شوقى فى هذا الميدان

آمال مصرية

وهنالك تاريخ مجهول هو تاريخ جهاد المصريين لتحرير طرابلس من نير الطليان فى أعوام الحرب الماضية ، وذلك الجهاد يرجع إلى نزعة أصيلة هى شوق مصر إلى التلاقى مع جميع الولايات التى تشرف على شواطىء البحر الأحمر وشواطىء البحر الأبيض ، فقد كانت مصر فى أكثر عهود التاريخ متصلة بتلك البلاد اتصال وداد وإخاء ، وبلادنا كانت الملتقى لآمال الرجال فى تلك البلاد ، فأكابر الأغنياء من اليمن والحجاز وفلسطين والشام ولبنان وليبيا والجزائر وتونس ومراكش قد انتفعوا جميعاً بمركز مصر مفتاح الشرق

وكبار الوطنيين فى مصر لهم أصول فى تلك البلاد ، فقد عُير عبد الرحمن الرافعى بأنه شامىُّ الأصل ، وعير عبد العزيز جاويش بأنه مغربى ، ونحن مع هذا نرى هذين الرجلين غاية فى شرف الوطنية المصرية

ما معنى ذلك ؟ معناه أن الوطن المصرى هو الوطن الذى ينتظم شواطىء البحر الأحمر وشواطىء البحر الأبيض ، وقد حفظ التاريخ أن جنودنا استنزلوا فى المعارك التى انتهت بفتح